﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط غوايتهم واليأس من نصحهم، بالانتقال من شبيهٍ إلى شبيهه، ومن مُقارِنٍ إلى مُقارِنٍ

بعدَ أنْ أنهَى اللّه تعالى الكَلامَ عَن قِصَّةِ نوحٍ وما جَرَى بَينَهُ وبَينَ مُكَذِّبي قَومِهِ لَهُ انتقَلَت السّورَةُ انتقالًا آخَرَ سَريعًا إلَى الحَديثِ عَن مُشركي مَكَّة مَعَ رَسولِ اللّه ﷺ حينَ زَعَموا في قَولِهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: 13]، وأنكروا كَونَ هَذا القرآنِ المنزَّلِ مِن عِندِ اللّه، وكانَ موقِفُهُم شَبيهًا بمَوقِفِ قَومِ نوحٍ عليه السلام فجاءَت الآيَةُ رَدًّا عَلَيهِم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: افترى: قطعٌ على الكَذِبِ وإخبارٌ به؛ لِأنَّ أصل افترى: قطع[1]، قال الرّاغِبُ: الفرْيُ: قطعُ الجِلدِ لِلخَرزِ والإصلاحِ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم"[2]،وهم أرادوا به التَّكذيبَ والاختِلاقَ، فالافتِراءُ كَذِبٌ مُتعَمَّدٌ مَعَ عَدَمِ وجودِ أدنى شُبهَةٍ في الكَلامِ.

2) ﴿إِجْرَامِى﴾: (جِرْمٌ) الجيمُ والرّاءُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ الفُروعُ، فالجِرْمُ القَطْعُ"[3]. وهوَ هُنا مُستَعارٌ مِن القَطعِ إلَى الكَسبِ، فالجُرمُ اكتِسابُ الشَّيءِ القَبيحِ المستحقُّ فاعِلُه العِقابَ عَلَيهِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 44 بتصرّف.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان أنَّ سوء عاقبة الافتراء والإجرام، تعود على صاحبها بالوبال وسوء الختام

جادَلَ قومُ نوحٍ كثيرًا، وفاضتْ رُدودُه عَلَيهِم دونَ جَدوَى رُجوعٍ أو إذعانٍ منهُم لدَعواهُ، وبعدَ أن واجَهَهُم بالكَثيرِ مِن الحُججِ والبَراهينِ، لعلَّهُ يَجِدُ منهُم الآذانَ الصاغيَةَ أو القُلوبَ الواعيَةَ لَم يزدهُم ذلكَ إلّا عِنادًا وصَلَفًا وغُرورًا، انتقَلَ الحديثُ مُباشَرَةً إلَى ما أثاره مشركو مَكَّة مَعَ رسول الله ﷺ في أنَّه قَد اختلَقَ القرآنَ، وافتَراهُ مِن عِنديّاتِ نفسِهِ ومِن بُنَيّاتِ أفكارِه، فجاء هَذا نَعيًا عَلَيهِم بما رَمَوهُ بِهِ، إنْ كانَ أمرُه كذلكَ؛ فعلَيه عاقبةُ إجرامِهِ، وهُم بريئونَ منها تمامًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى ﴿أَمْ﴾ بين الإضراب والاستفهام ودلالتها:

الارتباط بين قصة نوح عليه السلام وبين موقف مشركي مكّة من القرآن

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أمْ: هُنا منقطعة بمعنى (بل) التي هي لِلْإضْرابِ، وهو الانتقالُ مِنْ غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، "فالاسْتِفْهامُ الَّذي يُؤْذِنُ بِهِ حَرْفُ (أمْ) المُخْتَصُّ بعَطْفِ الاسْتِفْهامِ اسْتِفْهامٌ إنْكاريٌّ، ومَوْقِعُ الإنْكارِ بَديعٌ لِتَضَمُّنِهِ الحُجَّةَ عليهم"[1].

الآية الكريمة بين الاعتراض وعدمه:

تنوُّع الموقع، يثري المعنى، ويبين عن الدّلالة

هذه الجملة "جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ أجْزاءِ القِصَّةِ، ولَيْسَتْ مِنَ القِصَّةِ، ومَنْ جَعَلَها مِنْها؛ فقدْ أبْعَدَ، وهيَ تَأْكِيدٌ لِنَظيرِها السّابِقِ في أوَّلِ السّورَةِ، ومُناسَبَةُ هَذا الاعْتِراضِ أنَّ تَفاصيلَ القِصَّةِ الَّتي لا يَعْلَمُها المُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبَةٌ تَدْعو المُنْكِرينَ إلَى أنْ يَتَذَكَّروا إنْكارَهُمْ، ويُعيدوا ذِكْرَهُ، وكَوْنُ ذَلِكَ مُطابِقًا لِما حَصَلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السلام وشاهِدةً بِهِ كُتُبُ بَني إسْرائيلَ يَدُلُّ على صِدْقِ النَّبي ﷺ لِأنَّ عِلْمَهُ بذَلِكَ مَعَ أُمِّيَّتِهِ وبُعْدِ قَوْمِهِ عن أهْلِ الكِتابِ آيَةٌ على أنَّهُ وحْيٌ مِنَ اللّه لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، ولا مَنْ خَلْفِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/63.

والمَعنَى: لَقَد سُقنا لَكَ - يا محمد ﷺ - مِن أخبارِ السابقينَ ما هوَ الحَقُّ الَّذي لا يحومُ حَولَه باطِلٌ، ولَكِنَّ المُشركينَ مِن قَومِكَ لَم يَعتَبِروا بذَلِكَ، بَل يَقولونَ: إنَّكَ قَد افتَريتَ هذا القُرآنَ، قُلْ لَهُم: إن كُنتُ قَد افتريتُه - على سَبيلِ الفرضِ - فعَلَى وحدي تَقَعُ عُقوبَةُ إجرامي وافترائي الكَذِب، وأنا بَريءٌ مِن عُقوبَةِ إجرامِكُم وافترائكُم الكَذِب.

وإمّا أن تكون غيرَ معترضة، وإنَّما هي من قصَّة نوحٍ ﷺ وعليه يكون المعنى: بل أيقول قوم نوحٍ: إنَّ نوحًا ﷺ قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه، ثمَّ نسبه إلى الله تعالى؟ قل لهم: إن كنتُ قد افتريتُه؛ فعليَّ سوءُ عاقبة إجرامي وكذبي، وأنا بريء مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب"[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

وردَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لِلدِّلالَةِ على تَجَدُّدِ هَذا القَولِ وتكرُّره واستِمرارِهِ مِنهُم مَعَ استحضارِ هذه الصّورَةِ، وجَعْلِها ماثِلَةً في العُقولِ.

استحضار الصّورة، يبشِّع الفعل، ويجلّي خطورته

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ مَقولِ القَولِ بالفِعلِ الماضي ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

وردَ التَّعبيرُ في مَقولِ القَول: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ ماضيًا لتَحقُّقِ وُقوعِ هذا الافتراءِ وحُصولِهِ مِنهُ ﷺ وكَأنَّه اختَلَقَه، وادَّعاهُ لِبَيانِ صِدقِهِ، وعَلَى كُلِّ حالٍ إذا كانَ المَقصودُ نوحًا ﷺ فإنَّه اختَلَقَ هذه الأخبارَ، ومَوَّهها عَلينا، أو كانَ المقصودُ محمَّدًا ﷺ فإنَّه اختَلَقَ هَذا القُرآنَ مِن عِندِ نفسِه.

التَّعبيرُ بالتَّعريضِ إلَى نِسبَةِ الافتراءِ إلَيهِ

الغَرضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الأمرِ: ﴿قُلۡ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الأمرِ رَدًّا عَلَيهِم في تَكذيبِهِم ودَعواهُم

تلقين الردّ من الله تعالى له ﷺ آية على ضرورة الردّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/199، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/220، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/167.

الباطِلَةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ هوَ طَلَبٌ على جِهَةِ الاستِعلاءِ، وآمِرُهُ بالردِّ هوَ اللهُ تعالى، وقَد خَرَجَ الأمرُ إلَى الإرشادِ حَيثُ أرشدهُ تعالى إلَى الرَدَّ عَلَيهِم بمثلِ ما رَمَوْه بهِ، وجاءَت الجُملَةُ مَفصولَةً عَمّا سَبَقَ لِشبه كَمالِ الاتِّصالِ، والمُرادُ: فما كانَ رَدُّه عَلَيهِم؟ فقيلَ: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ الآية، وهنا أُمرَ ﷺ أنْ يُعرِضَ عن مُجادَلَتِهِم بالدَّليلِ؛ لأنَّهم لَيسوا أهلًا لِذَلكَ حيثُ أُقيمَت عَلَيهِم الحُجَّةُ أكثرَ مِن مَرَّة، ولَم تُقَدِّمْ شَيئًا مَعَهُم.

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرط:

وردَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ وهي جُملَةٌ شَرطيَّةٌ مُقترنةٌ بـ ﴿إِنِ﴾ الدالَّةِ على الشَّكِّ لِبَيانِ أنَّه على سَبيلِ الفرضِ مِنهُ، والمَعنَى: إنِ افْتَرَيْتُهُ كَما تَزعُمونَ، وهَذا أيضًا مِن بابِ المُشاكَلَةِ اللَّفظيةِ، فإنَّهُم لَمّا قالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ جاءَ رَدُّه مَن جِنسِ ما تَفوَّهوا بهِ؛ ليَكونَ أقطعَ للخَصمِ في دَحضِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، وأنَّهُم ما قالوا ذَلِكَ إلّا عِنادًا، وهُم يَعلَمونَ خِلافَهُ بَعدَ ما قامَتْ عَلَيهِم الحُجَّةُ.

أدَبُ النُّبوَّةِ، أدَبٌ راقٍ، عَلَّمَهُم اللهُ إيّاه

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ جَوابِ الشَّرطِ اسميَّة:

جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾، جملة اسميَّة مكوَّنة من خبر مقدَّم، ومبتدأ مؤخَّر للدَّلالة على ثبوت الإجرام ودوامه، إن وقع منه هذا الافتراء، وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: فعليَّ عقوبة إجرامي، فعُبِّر بالسبب وأراد المسبَّب، ومعلوم أنَّ التعبير بالجملة الاسمية يكون أقوى في الدلالة على المراد لثبوت دوامها.

دائمًا ما يتحمَّل الكريم تبعات غيره، مع نزاهته وبراءته

نُكتَةُ تَقديمِ الخَبرِ ﴿فَعَلَيَّ﴾، على المُبتَدأ ﴿إِجْرَامِى﴾:

كانَ مِن أدَبِهِ ﷺ أن يَجعَلَ الجُرمَ خاصًّا بهِ لا يَتعدّاه إلَى غَيرِه، ومِن هُنا وجدنا التَّعبيرَ بتقديمِ الجار والمجرورِ لِغَرضِ القَصرِ والتَّخصيصِ، والمُرادُ "تقديمُ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مُؤْذِنٌ بالقَصرِ، أيْ: إجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيْكُم، فلماذا تُكْثِرونَ ادِّعاءَ الافْتِراءِ،

الواثِقُ باللهِ تعالى؛ لا تَهُزُّه الأراجيفُ

كَأَنَّكُمْ سَتُؤَاخَذونَ بتَبِعَتِهِ، وهَذا جارٍ على طَريقَةِ الاسْتِدْراجِ لَهُمْ والكَلامِ المُنْصِفِ"[1].

دِلالَةُ حَرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ ومعناهُ:

الإجرام يستعلي على صاحبه، ويوبقه في المخازي والآثام

التَّعبيرُ بحرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ يفيد الاستعلاءَ، أي: عُلوَّ الشَّيء على شَيءٍ، "وذِكْرُ حَرْفِ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مَعَ الإجْرامِ مُؤْذِنٌ بأنَّ الإجْرامَ مُؤاخَذٌ بهِ، كَما تَقْتَضيهِ مادَّةُ الإجْرامِ"، وهذا ردٌّ كريمٌ مِن نَبيٍّ كريمٍ، وإن كانَ أبعدَ النّاس أنْ يُلقى على نَفسِه تَبِعَةُ إجرامِهم وافتراءاتِهم.

سِرُّ إضافةِ المبتَدَأ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ في ﴿إِجْرَامِي﴾:

مُجاراةٌ ومُباراةٌ لِلتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ مزاعم الخصم

أضيف الاسم إلى الضَّمير العائد على نوح ﷺ إعلانًا لتحمُّله وحده نتيجة إجرامه لو كان، وفيه تعريضٌ بإجرامهم هم وتحمُّلهم عقوبة ذلك. والمَعنَى: إنْ كُنتُ افتريتُه - كَما تَزعُمونَ - فهو جُرمٌ عَظيمٌ وقَعَ مِنّي، وعَلَيَّ وحدي إثمُه، حَيثُ كُنتُ السَّببَ المُحدِثَ لَه، "فهذا أُسلوبٌ جَدَليٌّ بَيانيٌّ فيهِ مُجاراةٌ مؤقَّتةٌ لِلخَصمِ لِلتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ دَعواهُ"[2].

لطيفةُ المُغايرَةِ بيَن الشَّرطِ وجَزائِهِ، والفرق بين الإجرام والافتراء:

الافتراء أشدُّ الإجرام، والإجرام منبوذٌ في الدّين والقانون

(قُل: إنِ افتَريتُه؛ فعَلَيَّ افترائي): "لَمّا كانَ الافْتِراءُ على اللّه إجْرامًا؛ عَدَلَ في الجَوابِ عَنِ التَّعْبيرِ بالافْتِراءِ مَعَ أنَّهُ المُدَّعى إلَى التَّعْبيرِ بالإجْرامِ، بحيث لا تبدو حاجةً إلَى تَقْدير: فعَلَيَّ إجْرامُ افْتِرائي"[3]، وفي المغايرة تأكيد أنَّ الافتراء إجرامٌ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ التَّذييلِ اسميَّةً:

براءة الأنبياء من الإجرام ثابتة، وإجرام الكافرين متجدِّد

هذه الجملة "تَذْييلٌ لِلْكَلامِ وتَأْييدُهُ بمُقابِلِهِ، أيْ: فإجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيْكُمْ، كَما أنَّ إجْرامَكُمْ لا تَنالُني مِنْهُ تَبِعَةٌ"، وفي هَذا التَّذييلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

تَعريضٌ بكَونِهم المجرمين لا هوَ ﷺ ولا حاجَةَ إلَى تَقْديرِ المُضافِ في قَوْلِهِ: مِمّا تُجْرِمونَ، أيْ: تَبِعَتِه، وإنَّما هوَ تَقْديرُ مَعْنًى، لا تقديرُ إعْرابٍ، والشَّيْءُ يُؤَكَّدُ بضِدِّه"[1]. وقد عَبَّرَ النَّظم الكريم في جانب نوح ﷺ بالجُملَةِ الاسميَّةِ للدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، وعَنهُم بالجُملَةِ الفعليَّةِ الدالَّةِ على التَجَدُّدِ والحُدوثِ مِمّا يَدُلُّ على أنَّ جُرمَهُم واقِعٌ مِنهُم، ومُتَجَدِّدٌ لا ينقطِعُ، ففي كُلِّ وقتٍ يَقَعُ مِنهُم جُرمٌ.

الأنبياءُ معصومونَ، ولا يمكن لهم أن يفتروا على الله الكذب

بلاغة الاحتباك في سياق الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ إيجاز بالحذف، وهو النَّوع المعروف بـ (الاحتباك)، والإيجاز في الكلام يفيد فائدة، إذ لو ذكر المحذوف؛ لكان حشوًا لا طائل تحته، وفي هذهِ الجُمْلَةِ تَوْجيهٌ بَديعٌ، وهوَ إفادَةُ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنْ أنْ يَفْتَرِيَ القُرْآنَ، فإنَّ افْتِراءَ القُرْآنِ دَعْوَى باطلةٌ ادَّعَوْها عليه، فهيَ إجْرامٌ مِنْهُمْ عليه، فيَكونُ المَعْنَى: وأنا بَريءٌ مِنْ قَوْلِكُمُ الَّذي تُجْرِمونَهُ عليَّ باطِلًا"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»